

مبدأ التحقق من هيوم إلى الوضعية المنطقية

*The principle of verification of Hume to the logical positivism*جهمون الصغير سهام*، د. عبد الله مصطفى²¹ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، jhmwnflsft@gmail.com² جامعة البليدة 2 لونيبي علي (الجزائر)، musabdellah53@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/10/27 تاريخ القبول: 2025 /03/03 تاريخ النشر: 2025/04/12

ملخص: اشتهر هيوم في تاريخ الفلسفة بإخلاصه الشديد لمبادئه التجريبية وحرصه على التزام حدود الملاحظة والتجربة، وهذا ما ولد عنده نزعة نقدية جارفة عبّر عنها بوضوح بتأسيسه مبدأ أسبقية الانطباع، بوصفه آلية ذكية لتطهير الفلسفة من كلّ الأفكار والتصورات الميتافيزيقية التي ساهمت بصورة أو بأخرى في إخفاق الكثير من الأنساق الفلسفية وإبعادها عن ساحة الواقع والحقيقة. ولقد ارتأينا في هذا المقال أن نلفت انتباه المهتمين بالشأن الفلسفي إلى تأثير فلسفة هيوم الكبير على التفكير الفلسفي بعده وفكر الفلسفة الوضعية والوضعية المنطقية بشكل خاص، حيث قاسمت هذه الأخيرة هيوم قناعاته التجريبية، فعملت بدورها على شدّ الفلسفة إلى ساحة العلم والتجربة من جديد، وكذلك ورث روادها من فيزيائيين ورياضيين عن هيوم نزعته النقد الثائرة ضد كل ما هو ميتافيزيقي ومجرد. وأصبح بديهيا والحال هذه أن يعاود مبدأ أسبقية الانطباع الظهور من جديد لدى الوضعيين المنطقية في صورة مبدأ التحقق الصورة الأكثر نضوجا للمبدأ الأول في علم الطبيعة البشرية والمفجّر الأول لمشكلة الاستقراء.

كلمات مفتاحية: هيوم،، تجريبانية،، التحقق،، الانطباع،، نقد.

Abstract: Hume is well-known in the history of philosophy for his steadfast commitment to his empirical principles and his dedication to adhering to the boundaries of observation and experimentation. This commitment fostered in him a powerful critical inclination, which he clearly expressed by establishing the principle of the precedence of impressions. This principle serves as an astute mechanism to purify philosophy from all metaphysical ideas and notions that have, in one way or another, contributed to the failures of many philosophical systems, distancing them from the realm of reality and truth.

In this article, we aim to draw the attention of those interested in philosophical matters to Hume's significant influence on philosophical thought after him, particularly on positivist philosophy and logical positivism. The latter shared Hume's empirical convictions, which in turn helped to reanchor philosophy in the realm of science and experimentation. Additionally, its pioneers—physicists and mathematicians— inherited from Hume his critical inclination against anything metaphysical or abstract. Given this context, it became evident that the principle of the precedence of impressions re-emerged among the logical positivists in the form of the principle of verification, representing a more mature expression of Hume's original principle in the study of human nature and the fundamental challenge of induction. Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article

Keywords: Hume; Empiricism; Verification; Impression; Critique.

1. مقدمة:

يكفي أن نطلع على ما كتب حول الفلسفة الديكارتية، حتى ندرك المكانة المرموقة التي يحتلها الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت. (1596-1650) في الفلسفة الحديثة عموماً وفي المذهب العقلاني بشكل خاص، ولن نبالغ إذ قلنا أن المكانة التي يحتلها الفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم في المذهب التجريبي لا تقل عن مكانة ديكارت في المذهب العقلاني مع هذا الاختلاف البسيط، وهو أن فلسفة ديكارت تعتبر فاتحة الفلسفة التجريبية في العصر الحديث. على الرغم من أن هيوم لم يكن أول فيلسوف تجريبي في العصر الحديث يدعو إلى الاستعاضة عن العقل بالتجربة كمصدر أول للمعرفة، فقد سبقه إلى ذلك كل من جون لوك (1632-1704) و باركلي (1685-1753)، إلا أن التجريبانية الإنجليزية لن تكتمل ملامحها ولن تنضج بالقدر الكافي إلا مع هيوم، الفيلسوف الذي عرف كيف يحتضن المبادئ التجريبية التي وضعها كل من لوك وباركلي، ويطورها لينشئ لنا بالنهاية نسقاً تجريبياً قوياً ومتماسكاً إلى أبعد حد، بلغت من خلاله التجريبانية ذروتها إبان القرن الثامن عشر في إنجلترا.

طمح هيوم لإعادة بناء الفلسفة من جديد وفقاً للنموذج النيوتوني في دراسة الطبيعة، ولذلك أسس ما يسمى ب علم الطبيعة البشرية في محاولة منه لدراسة المواضيع الإنسانية والأخلاقية بواسطة منهج تجريبي يقوم على الملاحظة والتجربة كآليتين وحيدتين في البحث، وهو بهذا يعتبر أول فيلسوف في العصر الحديث يقدم لنا محاولة جادة لإنقاذ الفلسفة من غموض التصورات الميتافيزيقية واللاهوتية، والعمل على تقريب التفكير الفلسفي من ساحة العلم والتجربة.

لقت محاولة هيوم هذه تأييداً كبيراً من قبل الفلاسفة الذين جاؤوا بعده، إلى درجة صرح فيها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (1724-1804) بأن الفيلسوف الإسكتلندي قد أيقظه من سباته الغماني، والواقع أن الهزة التي أحدثتها فلسفة هيوم كانت قوية إلى درجة لم توقظ فيها كانط وحده، بل أيقظت الفلسفة الحديثة والمعاصرة أيضاً. إذ لا يلبث الدارس لمعظم اتجاهات الفكر المعاصر خاصة الغربي منه- على غرار الفلسفة الوضعية *le positivisme أو الوضعية المنطقية** le positivisme logique أن يلمس أصداء فلسفة هيوم وهي تتردد في ثنايا هذه المدارس الفلسفية التي ورثت عن هيوم إخلاصه للتجربة والتزامه حدود الواقع، وعدائه الشديد للميتافيزيقيا، واستهلت من هذه الثلاثية أهم مبادئها، في مقدمتها مبدأ التحقق principe de vérification الذي اشتهرت به الوضعية المنطقية في الفترة المعاصرة، والذي يعتبر هيوم أول من أرهص له في فلسفته التجريبية من خلال وضعه لما يُسمى ب مبدأ

أسبقية الانطباع، هذا المبدأ الذي اعتبره هيوم تماما كما ستعتبره الوضعية المنطقية بعد ذلك معيارا للكشف عن صدق الفكرة من زيفها. ونظرا لأهمية هذا الموضوع ارتأينا معالجته في هذا المقال المتواضع من خلال طرح الإشكال التالي:

كيف ساهم هيوم في نشأة مبدأ التحقق الوضعي؟ وماهي أهم إرهاصات هذا المبدأ في فلسفته التجريبية؟

2. التجريبانية الراديكالية عند هيوم

1.2 نظرية هيوم في الإدراكات:

إنّ طموح هيوم لتأسيس فلسفة تجريبية راديكالية إلى أبعد حد، كان كفيلا يجعله يسبق عصره بخطوات عملاقة، ويضمّن نسقه الفلسفي البذور الأولى التي ستصنع مجد أقوى المدارس الفكرية المعاصرة، حيث كان يكتف هذا الفيلسوف الإنجليزي بكون أول من أشار إلى مشكلة الاستقراء في العصر الحديث، بل كان أيضا أول خط الملامح الأولى لمبدأ التحقق الذي عُرفت به الوضعية المنطقية المعاصرة، وذلك من خلال نظريته في المعرفة، والتي أكد من خلالها أنّ أسبقية الانطباع للفكرة هو الدليل الوحيد على صدق هذه الفكرة وعدم زيفها وبطلانها.

بسط هيوم نظريته في المعرفة في الجزء الأول من كتابه رسالة في الطبيعة البشرية *Traité de la nature Humaine* حيث أكد على أنّ كلّ ما يوجد في العقل الإنساني بل وكلّ ما يكمن أن يوجد فيه هو الإدراكات *les Perceptions* والإدراك بالنسبة إلى هذا الفيلسوف هو "كل ما يعرض للفكر وما يمكن أن ننسب إليه الوجود"¹. رغم أن كلمة إدراك لم تكن من اختراع هيوم ولم يكن أول من رد المعرفة الإنسانية إلى إدراكات، فقد سبقه إلى ذلك سلفه لوك، إلّا أنّ مصطلح إدراك حظي بمكانة جدّ خاصة في فلسفة هيوم، ولا أدلّ على ذلك من التقسيمات الشهيرة التي اقترنت بنظرية هيوم في الإدراكات، وهي ثلاثة: تقسيم الإدراكات إلى انطباعات وأفكار، وتقسيمها إلى إدراكات إحساس وإدراكات تأمل وأخيرا تقسيمها إلى إدراكات بسيطة وإدراكات مركبة، ولكلّ واحد من هذه التقسيمات دوره في توضيح التجريبانية الراديكالية في فلسفة هيوم وفي نظرية المعرفة لديه.

يؤكد هيوم أنّه لا يوجد في العقل الإنساني إدراكات وترتدّ هذه الأخيرة إلى انطباعات (*Impressions*) وأفكار يقول هيوم في كتابه الرسالة " ترجع كلّ إدراكات الفكر الإنساني إلى نوعين متميزين هما واللذين أسمّيتهما انطباعات وأفكار، يكمن الفرق بينهما في درجة القوة والحيوية التي يقرعان بها الفكر ويشقّان بها طريقهما في فكرنا ووعينا"².

يُعلنُ هيوم في النصّ السابق عن المعيار الذي يقسّمُ وفقاً له الإدراكات إلى انطباعات وأفكار وهو معيار القوة (La force) والحيوية (la vivacité) فيكون بذلك الانطباع كل إدراك يتميز بالقوة والحيوية عند العقل الإنساني للوهلة الأولى، سواء كان انطباع إحساس كانطباع اللون والصوت والرائحة. أو انطباع تأمل، وينشأ هذا الأخير عن تأمل الذات لأحوالها وانفعالاتها كالفرح والخوف والمحبة... يقول هيوم " الإدراكات التي تدخل بقوة أكبر وعنّف أكبر يمكننا تسميتها انطباعات، وأنا أجمع تحت هذا الاسم كل إحساساتنا، انفعالاتنا ومشاعرنا مثلما تعرضُ للنفس في البداية"³.

وأما الفكرة فليست في نظر هيوم إلّا وعي العقل بالانطباع، وهي الصورة التي يخلفها الانطباع في الذهن عند غيابه، ولأنّ غياب الانطباع يكون مصحوباً بغياب ما يشمل عليه من قوة وحيوية، فإن صورته لا بد أن تكون ضعيفة وباهتة سواء تعلق الأمر بأفكار الإحساس الناتجة عن انطباعات التأمل، يقول هيوم في هذا الصدد: " أقصد بالفكرة صورها (أي صور الانطباعات) الضعيفة خلال التفكير أو الاستدلال"⁴. لا يسم هيوم الإدراكات إلى انطباعات وأفكار فحسب، وإنّما يُقسّم الانطباعات إلى انطباعات إحساس وأفكار تأمل أيضاً، ولعلّ تقسيم الإدراكات بهذا الشكل، يجعلنا نرى أنّ الاختلاف الذي يُقرّهُ هيوم بين الانطباع والفكرة من حيث درجة القوة والحيوية لا يعني أبداً اقراره بالانفصال التام بينهما، بدليل تأكيده على أنّ الفكرة صورة الانطباع ولا يمكن أن تنشأ من دونه، ذلك أنّنا إذا فحصنا أفكارنا سنجد أنّ كل فكرة تُمثّل المحتوى نفسه الذي يمثله الانطباع الموافق لها، وهكذا فكلما أنّنا نملك انطباعات عن الألوان والأصوات والأشكال وعن المحبة والبغض والخوف...، فذلك نملك أفكاراً عن هذه المواضيع نفسها.

والواقع أنّ الانطباع والفكرة متلازمان في نظر هيوم تلازم الإنسان مع ظلّه، ويظهر هذا التلازم واضحاً على مستوى الإدراكات البسيطة، وهي تلك الإدراكات التي لا يمكن ردّها إلى ما هو أبسط منها وهي تمثل الوحدات الأساسية للمعرفة الإنسانية كلّها، يقول صاحب الرسالة " الإدراكات البسيطة سواء كانت انطباعات وأفكار موجودة على نحو بحيث لا نستطيع أن نميّزها عن بعضها البعض ولا أن نُقسّمها"⁵، وانطلاقاً من هذه الإدراكات البسيطة يتكون النوع الثاني من إدراكاتنا في نظر هيوم وهي الإدراكات المركبة. وإذا ما سلّطنا الضوء على مسألة المتلازم بين الانطباع والفكرة، سنجد أنّ لكلّ انطباع بسيط فكرة تشبهه وتوافقه، ولكلّ فكرة بسيطة انطباع يشبهها ويوافقها تماماً يقول هيوم " بعد الفحص الأكثر حديّة الذي أستطيع القيام به أجسّرُ على التأكيد أنّ القاعدة هنا صالحة دون استثناء وهي أنّ كل فكرة بسيطة لديها انطباع بسيط يوافقها"⁶.

2.2 مبدأ أسبقية الانطباع:

بعد العلاقة المتبادلة التي يقرها هيوم بين الإدراكات البسيطة سواء كانت انطباعات أو أفكار ينتقل لفحص أيهما أسبق، ومن البديهي أن يجعل الفيلسوف الذي أراد أن يؤسس لتجريبانية راديكالية الجذر الأول لمذهبه يستقر في ساحة التجربة، ويقر تبعاً لهذا أنّ الانطباع البسيط هو الأسبق دائماً، وهو الأصل الذي تنبثق عنه كلّ أفكارنا دون استثناء يقول هيوم: "تُبين لي التجربة أن الانطباعات البسيطة تسبق دائماً الأفكار الموافقة لها، ولا تظهر أبداً في ترتيب معاكس"⁷.

بناءً على العلاقة المتينة التي أقرها هيوم بين الانطباع والفكرة من جهة، وقوله بضرورة أسبقية الانطباع عن الفكرة من جهة أخرى، يصوغ لنا الفيلسوف التجريبي ما يسميه بمبدأ أسبقية الانطباع عن الفكرة بوصفه المبدأ الأول لعلم الطبيعة البشرية، وبالرغم من البساطة التي يبدو عليها هذا المبدأ إلا أنّه يمثل مركز ثقل نسق هيوم الفلسفي والمحرك الخفي لكلّ نظرياته على الإطلاق، ويصرّح هيوم بهذا فيقول "هذا هو إذن أول مبدأ أضعه لعلم الطبيعة البشرية، ولا يجب إهماله بسبب أنّه يبدو بسيطاً"⁸.

ولعله في هذه النقطة بالذات يتقاطع فكر هيوم مع فكر الوضعية المنطقية، فهو بوضعه لمبدأ أسبقية الانطباع يكون قد رسم أولى ملامح مبدأ التحقق، الذي سيقول به رواد الوضعية المنطقية فيما بعد وحول هذا الموضوع يقول السيد عبد السلام بن ميسي "توجد دلالات تبرّر بأنّ هيوم قد اشتغل على الصياغة الحديثة لمبدأ قابلية التحقق ويعترف آير (1910-1989) Alfred Jules Ayer أنّ الوضعيين المنطقيين قد ورثوا عن هيوم المفهوم العام للتحقق"⁹.

وما يؤكد على هذا أنّ مبدأ التحقق الوضعي سيتّيز أو لنقل سيحافظ على الخصائص نفسها أقرها هيوم لمبدأ أسبقية الانطباع، وأهمّها خاصيتين: تتمثل الأولى في تأكيد هيوم على المضمون التجريبي البحث لهذا المبدأ، وهذا نفسه ما ستؤكد عليه الوضعية المنطقية بالنسبة إلى التحقق على مستوى القضايا التركيبية التي تتعلق بقضايا الواقع أين ستعتبر الوضعية المنطقية أنّ التجربة هي الأرضية الأولى التي ينبغي أن ينطلق منها مبدأ التحقق، وهذا بخلاف التحقق على مستوى القضايا التحليلية الذي يكون تحقق عقلياً ومنطقياً فقط، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً.

أمّا الخاصية الثانية فيتعلق بالوظيفة التي سيؤديها مبدأ أسبقية الانطباع في فلسفة هيوم وهي نفسها الوضعية التي سيضطلع بها مبدأ التحقق في كنف الوضعية المنطقية، وتتمثل هذه الوظيفة بالأساس في الكشف عن زيف وبطلان كلّ الأفكار العقلية المتعالية والمجرّدة والبعيدة عن التجربة، وهذا

ما سيمكّن الوضعية المنطقية بعد أن مكّن هيوم قبل ذلك من الإطاحة بأقوى الأفكار الميتافيزيقية إلى هاتين الخاصيتين كل على حدة.

أما فيما يتعلق بالخاصية الأولى، فمن المعلوم أن هيوم يردّ نشأة الأفكار إلى الانطباعات ويشبّه الفيلسوف في كتابه الرسالة العلاقة بين الانطباع والفكرة بالعلاقة بين الشمس والأشعة الصادرة عنها فمهما بدت هذه الأشعة خافتة وباهتة إذا ما قورن بوهج الشمس، إلّا أنها لا يمكن أن توجد من دونها أبداً، وكذلك الأفكار التي حتى وإن لم تكن إلا صوراً ضعيفة عن الانطباع، إلّا أنها تستمد وجودها منه بالكامل، فالفكرة التي لم تنشأ عن انطباع هي فكرة زائفة بالضرورة، وفي هذا تأكيد صريح من قبل هيوم على رفض نظرية الأفكار الفطرية (la théorie des idées innées) ** التي تنص على أن الإنسان يولد وعقله مزوّد بجملة من الأفكار والمبادئ الأولية التي يكون بمثابة البذور الأولى لكل المعرفة الإنسانية.

يرفض هيوم مثله مثل لوك قبله نظرية الأفكار الفطرية، فهو ينكر وجود أية فكرة في العقل بشكل أولي سابق عن التجربة، وبجراحة فافت جرأة لوك بكثير أكد هذا التجريبي الراديكالي أنّه إذا كان المقصود من كلمة فطري ما هو أولي وغير منسوخ عن غيره، فإنّ الانطباع وحده هو ما سيكون فطرياً في هذه الحالة وليس الأفكار مطلقاً، ويقول هيوم " إذا كنّا نقصد بالفطري ما هو أصيل وما هو غير منسوخ عن أي انطباع سابق له، عندئذ يمكننا أن نؤكد أن جميع انطباعاتنا هي الفطرية، وأنّ أفكارنا ليست كذلك " ¹⁰.

هكذا إذن يؤكد هيوم على المحتوى التجريبي للأفكار الصحيحة والمشروعة وبالمقابل يُجرّد العقل من أية فاعلية تُخوله القدرة على ابتكار فكرة بسيطة من غير أن يكون قد استمد قبل ذلك انطباعات بسيطة من التجربة، سواء كان انطباع إحساس أو انطباع تأمل ويبرهن هيوم على رأيه هذا بالخلف، فيرى أنّه لو كان العقل قادراً على ابتكار أفكار بسيطة من ذاته كما يزعم له العقلانيون ذلك لكان في استطاعة الأعمى والأصم بالولادة مثلاً امتلاك أفكار عن اللون والصوت....ولكن هذا مستحيل يقول هيوم " لا يستطيع الأعمى أن يكون أيّ تصوّر عن اللون ولا الأصم أيّ تصوّر عن الصوت " ¹¹.

وبنسق نظرية الأفكار الفطرية استطاع هيوم أن ينحت أصلاً جديداً لأفكارنا وهو الانطباع أنّ تجريبيانية هيوم كانت قوية ومتجردة لذلك لم يتوقف الفيلسوف الإنجليزي عند هذا الحدّ وإنمّا ذهب إلى أبعد من هذا بكثير عندما اعتبر أن أصل كل أفكارنا الصحيحة والمشروعة هو الانطباع وانطباع إحساس بالتحديد لا انطباع تأمل.

من المعلوم أن هيوم يميّز في فلسفته بين نوعين من الانطباعات انطباعات إحساس تنشأ عند التقاء إحدى الحواس بشيء خارجي وانطباعات تأمل، وهي تلك الانطباعات التي تنتج عن تأمل الدّات

لأحوالها وانفعالاتها الباطنية، وعن هذين النوعين من الانطباعات تصدر كل أفكارنا، والتي تكون بدورها أفكار أخرى وهكذا دواليك، يقول هيوم في هذا الشأن " مثلما تكون أفكارنا نسخا عن انطباعاتنا تستطيع كذلك أن تكون أفكار ثابتة هي نسخ عن الأولى"¹² وهذه الطريقة تتوالد أفكارنا وتتكاثر ولكن على الرغم من أن أفق أفكارنا قد يكون واسعاً جداً لكثرتها وتنوعها، إلا أننا إذا ما تراجعنا إلى الوراء باحثين عن مصدرها الأول، فلا بد لهذا المصدر في نظر هيوم أن يكون انطباع إحساس لانطباع تأمل، لأن انطباع التأمل حتى وإن كان سابقا عن أفكاره فهو حتما يلي انطباع الإحساس، ويقول هيوم في كتابه الرسالة " لا تسبق انطباعات التأمل سوى الأفكار التي توافقها، لكنها تتبع إدراكات الإحساس وتشتق منها".¹³

ولابد لنا أن نلاحظ هنا أن حس هيوم التجريبي وحرصه على الوفاء لمبادئه جعله يعطي الأفضلية والأسبقية لانطباع الإحساس مقارنة بانطباع التأمل، ذلك أن انطباع الإحساس يمثل في نظر هذا الفيلسوف التجريبي الأصيل، أما انطباع التأمل فإن الطريقة التي ينشأ بها تأمل الذات لأحوالها وانفعالاتها الباطنية والتي يطغي فيها العامل النفسي على العامل التجريبي الحسي، جعلت هيوم ينظر إليه كوسط بين الانطباع والفكرة، أو لتقل كانطباع من الدرجة الثانية لا يصلح لأن يكون النواة الأولى لنسق يريده صاحبه تجريبيا وحسيا إلى أبعد حد ممكن.

3. تأثير مبدأ أسبقية الانطباع في نشأة مبدأ التحقق الوضعي :

1.3 تأثر الوضعيون المناطقية بهيوم

لن تحدد الوضعية المنطقية عن تجريبيانية هيوم هذه، بل بالعكس تماما فهي مثله ستؤكد أنه الفلسفة الحقيقية لابد أن تنطلق من التجربة، وأن أصدق القضايا هي القضايا ذات المضمون التجريبي (القضايا البروتوكولية) ولا غرابة في هذا مادام أن رواد هذه المدرسة وأغلبهم من الفيزيائيين والرياضيين وكذا الفلاسفة أصحاب الاتجاه العلمي، ينظرون إلى هيوم بوصفه أبا روحيا لهم، إنه في نظرهم أفضل من مثل التجريبيانية في العصر الحديث فهو استطاع تشييد نسقا تجريبيا قويا ومتماسكا متجاوزاً في ذلك الثغرات التي اشتمل عليها نسق كل من لوك وبركلي خاصة، ويعتبر ريشباخ (1953-1981) عن هذا قائلا: " فلسفة دافيد هيوم هي أول بناء منسجم للتجريبيانية الإنجليزية صيغتها النهائية"¹⁴.

والواقع أن تأثر الوضعيين المنطقين بفلسفة هيوم وتبنيمهم لتجريبيانية جعلهم يحذون حذوه في الكثير من المسائل الفلسفية، خاصة فيما يتعلق بموقفهم إزاء الميتافيزيقا، فهم مثله اشتهروا بعنائهم الشديد ورفضهم المطلق لكل الأفكار الميتافيزيقية بناءً على مبدأ التحقق بعد أن رفضها هو قبل ذلك

انطلاقاً من اعتماده لمبدأ أسبقية الانطباع، هنا بالذات نجد أنفسنا أمام الخاصية الثانية التي تثبت بأنّ البذور الأولى لمبدأ التحقق الوضعي، وإنما وجدت في فلسفة هيوم، وإن هذا المبدأ الأخير ليس سوى مبدأ أسبقية الانطباع بعد أن نضج وتبلور بفضل الأبحاث المنطقية المعاصرة التي ساعدت على اكتمال صورته النهائية، وفي هذا السياق يرى السيد عبد السلام بن ميسي أن مبدأ التحقق يسعى أيضاً بالمبدأ الوضعي نسبة إلى الوضعية المنطقية على الرغم من أن البذور الأولى قد ظهرت عند هيوم " لكن هيوم لم يكن له فرصة الاستفادة من نسق منطقي منسجم لكي يعبر عن هذا المبدأ بطريقة أحسن، بينما انتفعت الوضعية المنطقية من المنطق الحديث والمُطوّر من قبل فريحة (Friedrich Ludvig Gottlob Frege) (1848-1925) وبانو (Guiseppe Peano) (1858-1932) ورسل (Bertrand Russell) (1872-1970) من أجل

إنجاز عمل ملائم أكثر وعلى العموم يبقى رأي هيوم ورأي الوضعيين المنطقيين هو نفسه.¹⁵

لكن رغم الإختلافات التي قد نجدها بين مبدأ التحقق الوضعي ومبدأ أسبقية الانطباع من حيث التفاصيل باعتبار معنى التحقق لدى الوضعيين المنطقيين لم يعد محصوراً في التحقق التجريبي في القضايا التركيبية كما هو الأمر بالنسبة إلى مبدأ أسبقية الانطباع، وإنما تعدّاه إلى نوع من التحقق العقلي والمنطقي يختص بالقضايا التحليلية كقضايا المنطق والرياضيات رغم هذا فإنه فيما يتعلق بالميتافيزيقيا خاصة، نجد أنّ وظيفة كل من مبدأ أسبقية الانطباع عند هيوم أو مبدأ التحقق الوضعي تبقى هي نفسها فسواء تحدثنا عن المبدأ الأول أو الثاني فنحن في كلتا الحالتين نتحدث عن معيار (Critère) يتبناه صاحبه للكشف عن صدق الأفكار أو زيفها يقول السيد عبد السلام بن ميس " جاب الوضعيون المنطقة تاريخ الفلسفة مثل هيوم بالاعتماد على بعض المبادئ مبدأ التحقق بشكل خاص من أجل اكتشاف الخطأ الفلسفي والأغاليط التي تفسر تناقص وفشل الأنساق الفلسفية الأخرى".¹⁶

ولم يشارك رواد الوضعية المنطقية هيوم في إعادة بناء الفلسفة على أسس تجريبية فحسب وإنما اتفقوا معه في أنّ السبب الرئيسي في ضعف الأنساق الفلسفية السابقة وفشلها، وإنما يرجع بالأساس إلى طغيان الطابع الميتافيزيقي والأفكار العقلية المجردة على نظرياتها التي باتت بمثابة أساطير تُبعدنا عن الحقيقة بدل أن تقربنا منها، ولذلك فإن السبيل الوحيد لإنقاذ الفلسفة هو تطهيرها من الأفكار الميتافيزيقية المضطربة في التعالي عن الواقع والتجربة يقول السيد عبد السلام بن ميس " الوضعيون المناطق يرفضون اقتداء بهيوم جزء كبيراً من الخطاب الفلسفي، أي الخطابات التي تملك كمواضيع لها مفاهيم: المطلق، الكلمات المتعالية، الجوهر....وبعبارة أخرى كلّ ما هو ميتافيزيقي فهو مرفوض"¹⁷

كما هو مبين في النص السابق يعتبر الدكتور عبد السلام بن ميس أنّ الوضعية المنطقية قد اقتدت بهيوم في رفضها الأفكار الميتافيزيقية المتعالية عن الواقع التجريبي، ذلك أنّ صاحب الرسالة في الطبيعة البشرية ويعتبر ومن دون منازع أول من قدم انتقادات لأقوى المفاهيم العقلية والأفكار والتصورات المجردة، ونجح في اجتثاثها من جذورها، وذلك اعتمادا على مبدأ أسبقية الانطباع الذي يمثل بشكل أو بآخر الصورة المبدئية لمبدأ التحقق المعاصر والشاهد هنا أنّ هيوم استطاع بفضل مبدئه هذا أن ينسق الوضعية المنطقية بحوالي قرنين من الزمن لنقد ما يسمى بالأفكار العامة أو الكلية المجردة على غرار فكرة الجوهر، فكرة القوة، المطلق، الرابطة الضرورية... إلخ وهي الأفكار نفسها التي ستنفدها الوضعية المنطقية لاحقا منتجة الأسلوب نفسه تقريبا في فحص الأفكار وتمحيصها وغربلتها.

وسنعطي فيما يلي لمحة عن أبرز الأفكار الميتافيزيقية التي تمكن هيوم من بيان بطلانها اعتمادا على مبدأ أسبقية الانطباع.

2.3 نقد هيوم للكلمات العامة والمجردة :

رغم أن بعض الفلاسفة والفلاسفة العقلانيون خاصة أكدوا أنّ للعقل قدرة على تكوين ما يسمى بالأفكار المتغيرة (الكيفيات الأولية) المكونة لماهيتها في معنى كليّ واحد يمثلها كلها دفعة واحدة، يرفض هيوم رغم الفلاسفة العقلانيين، ويعتبر أنّ الفكرة كلّما ابتعدت عن التجربة ابتعدت عن الوضوح أما ما يسمى بالتجريد فلا يُنشئ إلاّ الأفكار غامضة ومبهمة تماما يقول هيوم " كلّ الأفكار والأفكار المجرد على وجه الخصوص هي بالطبيعة غير متميزة وغامضة".¹⁸

وانطلاقا من مبدأ أسبقية الانطباع يرى هيوم أنّ كلّ أفكارنا ترتدّ إلى الانطباعات التي تزودنا بها التجربة، والتجربة لا تزود الذهن إلاّ بالانطباعات الجزئية والفردية متميزة عن بعضها البعض بدرجة معينة من الكمّ والكيف لذلك فإنّ ما ينطبق على الانطباع ينطبق على الفكرة أيضا، ومعنى هذا أنّه لا يوجد في الذهن إلاّ أفكارا جزئية لها درجات معينة من الكم والكيف تميزها فيما بينها يقول هيوم " الفكرة هي انطباع أقل حيوية، ومثلما يجب أن يمتلك الانطباع القوي وبالضرورة كمّ وكيف محددين، يجب أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى نسخه أو تمثله".¹⁹

ولما كانت التجربة لا تزودنا إلاّ بانطباعات جزئية تنتج عنها أفكارا جزئية أيضا، فإن هيوم ومن أجل تفسير نشأة الأفكار العامة يلجأ إلى المخيلة وبالتحديد إلى قوانين الربط وهي ثلاثة قانون التجاور، قانون التشابه، وعلاقة العلية، ويرى تبعا لهذه القوانين أنّ الفكرة العامة جزئية من حيث طبيعتها عامة من حيث استعمالها فقط، ويقصد هيوم باستعمال الفكرة منحها لفظا أو اسما عاما يقابلها الفكرة الجزئية

إذن تتحوّل إلى فكرة عامة عندما يربطها الذهن بلفظ عام مشترك يدل على عدّة أشياء أو معاني جزئية يجمع بينهما تجاوزاً أو تشابه أو علاقة عليّة، وهذا ما يجعل الذهن ينتقل للتفكير في مجموعة من الأشياء بمجرد أن يسمح اللفظ العام الذي إعتاد أن يطلقه على أحد منها يقول هيوم " تصبح الفكرة الجزئية عامة عند ربطها بلفظ عام"²⁰

وعلى رأس الأفكار العامة والمجردة التي سيتمكن هيوم من الكشف عن بطلانها بالاعتماد على مبدأ أسبقية الانطباع، فكرة الجوهر بنوعيه المادي والروحي وفكرة الرابطة الضرورية المنسوبة إلى علاقة العلية.

يرى هيوم أن ما درج الفلاسفة على تسمية بالجوهر المادي أو الجوهر الروحي ليس إلا فكرة مركبة من طرف المخيلة يقول هيوم " الجوهر هو فكرة مركبة"²¹، وهو ينكر أن يكون لمثل هذا المفهوم وجوداً مستقلاً ودائماً وإنّما يعتبره مجرد أثر من آثار مبادئ الربط والواقع أنّه في هذه النقطة بالذات تتفوق تجريبانية هيوم على تجريبانية كل من لوك وبركلي، اللّذين وبالرغم من معارضتها للأنساق العقلية.

إلا أنّهما احتفظا بفكرة الجوهر كلّ منهما على طريقته، فأبقى الأوّل على فكرة الجوهر المادي، واضطر الثاني للاحتفاظ بفكرة الجوهر الروحي، وهذا ما جعلها في نظر هيوم يحيدان عن مبادئ التجربة ولا يخلصان لها، يقول السيد سالتال " كان لوك وبركلي في نظر هيوم غير مخلصين للتجربة وعلى حد سواء"²² بالنسبة إليه لم يرى هيوم نفسه مضطراً لتدوين نظريات طويلة يفسر فيها أسباب رفضه لمفهوم الجوهر بنوعيه، بل بالعكس تماماً، فقد كان نقد هذا الفيلسوف لفكرة الجوهر مؤسساً على تطبيق مبدأ أسبقية الانطباع عن الفكرة، فكلّ فكرة مشروعة لابد لها أن ترتد إلى انطباع بسيط يوافقها، ولا تستوف فكرتنا عن الجوهر الماديّ ولا حتى الجوهر الروحي هذا الشرط فنحن لا ندرك في الجسم سوى الكيفيات الحسية الذي تظهر منه كالصلابة واللّون والامتداد....وهي تستنفذه بالكامل، ولا نجد في النفس سوى إدراكات مختلفة كالحرارة والبرودة والمحبة والخوف...ونحن في كلتا الحالتين لا نعثر على ذلك الانطباع الذي يقابل فكرتنا عن الجوهر لافي انطباعات الإحساس ولافي انطباعات التأمل يقول السيد كومباري تعبيراً عن رأي هيوم في هذا السياق: " لا الحواس و لا التأمّل يجعلنا نعرف شيئاً عن الجوهر"²³.

بناء على ما سبق يؤكّد هيوم أنّ فكرة الجوهر من الأساس ليست فكرة أصلية وإنّما هي فكرة زائفة مصطنعة تصنعها المخيلة اعتماداً على مبادئ الربط على غرار مبدأ التشابه، فالتشابه بين الأشياء والمواضيع هو الذي يدفع الذهن إلى الاعتقاد بأنّ الأشياء المتشابهة تمتلك هوية واحدة ثابتة ومستقلة

تفسر تشابههما يقول هيوم " التشابه هو سبب الغموض والخطأ وهو الذي يجعلنا نستبدل مفهوم الهوية بمفهوم المواضيع المربوطة"²⁴.

كذلك يساهم مبدأ التعاقب مبدأ العلية خاصة في نشأة فكرة الجوهر في أذهاننا، فمبدأ العلية يجعلنا نفترض أن لكلّ محلّول عليه تفسر وجوده ولهذا يندفع الذّهن وعثر ميل شديد لافتراض "س" مجهولة تقوم فيها الإدراكات أو الكيفيات الحسية التي لا يمكن أن تتصوّر قيامها دون حامل يدعمها أو قوام يسندها، وفي هذا يقول زكي نجيب محمود وهو يعرض لنا رأي هيوم في هذه النقطة بالذات "أوهام هي إذن هذه الأشياء الخفية التي نسميها بالذات أو بالنفس أو بالروح أو بالجوهر، وليس قوام الشيء الذي نعدّه شيئاً واحداً إلا مجموعة من حالات كثيرة ومتنوعة ارتبطت معا فيما ظنناه شيئاً واحداً بمبدأ من مياد الربط: كالتشابه والتجاوز وتلازم السبب والمسبب"²⁵

هكذا استطاع هيوم وبفضل تطبيقه لمبدأ الانطباع أن يثبت زيف وبطلان فكرة الجوهر بنوعية، ويجتثها من جذورها بعد أن استطاعت هذه الفكرة بشكل أو بآخر أن تتسلل إلى تجريبيانية كل من لوك وبركلي عندما ينجح في القضاء على مفهوم الرابطة الضرورية أو القدرة أو القوة أو الفاعلية المنسوبة إلى علاقة العلية.

إذّ من أهم الأسباب التي أدّت إلى فموض علاقة العلية وإشتمالها على العديد من التناقضات في نظر هيوم، هو تشبع هذه العلاقة بالمفاهيم والتصورات الميتافيزيقية التي ما فتئت تُبعدها عن ساحة التجربة وتخرجها من الطبيعة إلى ما وراءها، وفي مقدمة هذه المفاهيم مفهوم القوة أو القدرة البيئية أو ما يسمى في العموم بالرابطة الضرورية بين العلة والمعلوم، ولهذا فإنّ نقد الفيلسوف التجريبي لعلاقة العلية سيتركز أساساً على جانبها الميتافيزيقي، ولعل هذا بالذات ما يبرر احتفاظ هيومك بعلاقتي التجاوز والتعاقب اللذين تطلعن عليهما الملاحظة.

تدلنا التجربة إذن على وجود علاقة تجاوز بين العلة والمعلول وأسبقية زمانية لليلة عن معلولها، لذلك لا يجد هيوم حرجاً في قبول هاتين العلاقتين بينما يرفض رفضاً قاطعاً إلا دعاء الذي يُقرّ بوجود قدرة أو قوة في العلة تجعلها تنتج معلوماتها وترتبط به ارتباطاً ضرورياً، وحتى يتسنى لهيوم دحض مفاهيم القدرة والقوة والرابطة الضرورية، سيكتفي كما فعل بالنسبة لنقد فكره الجوهر بإثبات استحالة العثور على انطباع يمكن أن ترد إليه هذه الأفكار ويرى السيد ياكيرا في كتابه السببية من غاليلي إلى كانط يستهدف النقد الهيوم لليلة وعلى وجه التحديد صعوبة تمثّل " الإنتاج " " القوة " تقوم إستراتيجيته على

إبستمولوجيا تجريبية.²⁶

وليسست هذه الاستراتيجية التجريبية في الحقيقة إلا مبدأ أسبقية الانطباع الذي ينفي من خلاله هيوم وجود انطباع إحساس ترتد إليه أفكارنا عن القدرة أو القوة الذي تجعل الارتباط بين العلة والمعلول ارتباطاً ضرورياً ذلك أن ماهية الجسم في نظر هذا الفيلسوف تعتزل فيما ندركه فيها من كيفيات حسية، لذلك فهو يؤكد أننا لو افترضنا وجود قوة أو قدرة ما في الشيء أو الجسم، لوجب أن تكون هذه القوة أو القدرة من بين الكيفيات الحسية التي تكون ماهية الشيء الذي نسميه علة، ولكان في استطاعتنا إدراكها، تماماً كما ندرك كيفيات اللون والشكل والصلابة..... التي تتكون منها الأجسام غير أنه ومهما كانت ملاحظتنا دقيقة، فإننا نعجز دائماً عن إيجاد تلك الكيفية الحسية التي تمثل الأصل التجريبي لفكرتنا عن القدرة السببية يقول هيوم " في الحقيقة لا يوجد أي جزء من المادة بحيث يكتشف لنا ومن خلال كيفياته الحسية عن القدرة أو الطاقة أو يقدم لنا قاعدة كي نتخيل أنه يستطيع إنتاج شيء ما أو أنه يكون متبوعاً بموضوع آخر والذي يمكننا تسميته معلولاً له ²⁷.

وبالطريقة نفسها التي أثبت بها هيوم عدم وجود انطباع إحساس ترتد إليه فكرتنا عن الرابطة الضرورية في علاقة العلية، وبالاعتماد على مبدأ أسبقية الانطباع ينجح هذا الفيلسوف التجريبي الراديكالي في نفي وجود انطباع تأمل تصدر عنه فكرة القوة أو الرابطة الضرورية ليخلص هيوم بالنهاية إلى أن فكرتنا عن ما يسمى بالرابطة الضرورية هي مجرد فكرة زائفة لا أصل لها في الإحساس ولا في التأمل بقول: " ومثلما لا نستطيع أبداً أن نمتلك فكرة عن الشيء الذي لا يظهر مطلقاً لحواسنا الخارجية أو لحسبنا الداخلي، فإن النتيجة الضرورية لذلك هي على ما يبدو أننا لا نملك أبداً فكرة الارتباط أو القدرة، وأن هذين اللفظين لا يملكان أية دلالة عندما نستخدمهما في الاستدلالات الفلسفية أو الحياة اليومية ²⁸.

أما عن مصدر فكرتنا عن الرابطة الضرورية فهي على غرار فكرة الجوهر مجرد وهم تصنعه المخيلة بالاعتماد على ما تلاحظه من تجاوز دائم وتعاقب منتظم ما نسميه علة ونسميه معلول، وبفضل التكرار الرتيب لظهور العلة والمعلول وفق النظام نفسه دائماً تنشأ في الذهن عادة نفسية لاعتبار أحدهما منتجا للآخر، وعندما تتجذر هذه العادة في الذهن الإنساني يتولد الاعتقاد بوجود ارتباط ضروري بين العلة والمعلول ما يجعل الذهن في النهاية يشعر باندفاع وميل شديدين لتقرب أحدهما بمجرد ظهور الآخر لذلك يخلص هيوم لتعريف العلة قائلاً " العلة هي موضوع سابق لآخر مجاوز له، وهي جد مرتبطة بهذا الأخير بحيث أن فكرة أحدهما توجه الفكر لتكوين فكرة الآخر ²⁹.

والجدير بالذكر أنه سيكون لهذا التصور الجديد الذي قدمه هيوم لعلاقة العلية عظيم الأثر على الفكر الغربي بعده، حيث سيعطي الشرارة الأولى لواحدة من كبريات المشكلات الفلسفية وهي مشكلة

الاستقراء التي يعتبر هيوم أول من أثارها في العصر الحديث. ذلك أنّ الانتقادات التي وجَّهها هذا الفيلسوف لعلاقة العلية أو السببية زعزت وجودها كعلاقة واقعية وضرورية لتفسير الظواهر في الطبيعة، وبالرغم من مجهودات كانط من أجل إعادة تفسير العلية بوصفها مقولة من مقولات العقل الذي يضمن لها الكليّة والضرورة، إلّا أنّ معظم الفلاسفة خاصة فلاسفة العلم ورواد الوضعية المنطقية أثروا رأي هيوم فيما يخص علاقة العلية على رأي كانط فيها، ولا أدلّ على ذلك من تبنيهم لمشكلة الاستقراء ونقد أساسها التجريبي والمنطقي على حدّ سواء. وحتى التفسير الذي قدّمه هؤلاء للاستقراء لم يبتعد كثيراً عن تفسير هيوم له، يوضح السيد عزمي اسلام هذا فيذهب الى أن الفيلسوف الوضعي لوديفيغ فتجنشطاين (1889-1951) وبعدما رفض الأساس المنطقي للاستقراء لم يكن أمامه الا تفسير الاستقراء على أساس نفسي كما صنع هيوم، "يقول فتجنشطاين وعلى أيّة حال فإنّ هذه العملية-أي الاستقراء- ليس لها أساس منطقي بل أساس نفسي فقط. فمن الواضح أنّه لا وجود لأسس نعتقد بناء عليها وخفي أنّ أبسط مجرى للأحداث هو الذي سيحدث حقيقة"³⁰.

4. خاتمة:

وخلاصة القول أن معظم الاتجاهات الفكرية المعاصرة على غرار الفلسفة الوضعية أو الوضعية المنطقية المعاصرة أو حتى الابستمولوجيا، ورثت عن هيوم إخلاصه للتجربة والتزامه حدود الواقع وعدائه الشّديد للميتافيزيقا، واستلهمت من هذه الثلاثية أهم أفكارها ومبادئها الفلسفية على غرار مبدأ التحقق الذي يعتبر امتداداً لمبدأ أسبقية الانطباع. ولعل هذا ما يفسّر هيمنة النزعة النّقدية على مباحث الفلسفة المعاصرة، هذه النزعة النقدية التي ظهرت بوضوح في مشكلة الاستقراء التي تعتبر على رأس مشكلات الفلسفة والابستمولوجيا في الفترة المعاصرة. وهكذا فإن ذكاء هيوم وإخلاصه للتجربة ونفاذ بصيرته كلّ هذه العوامل ساهمت في جعل هيوم واحداً من أولئك الفلاسفة القلائل الذين أفنوا أعمارهم في خدمة العصر الذي عاشوا فيه، ولم يغادروا الحياة إلّا بعد أن وضعوا حجر الأساس للعصر الموالي .

5. قائمة المراجع:

(*) الوضعية le positivisme هي اتجاه فلسفي معاصر تأسس على يد أوغست كومت (1798-1857 Auguste Comte) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، اشتهر بمعاداته للميتافيزيقا والدّفاع عن الطابع العلمي والوضعي للتفكير.

(**) الوضعية المنطقية le Positivisme Logique مدرسة فلسفية ظهرت في القرن 20، عيّنت بنقد الفلسفة خاصة في بعدها الميتافيزيقي. تعتبر حلقة فيينا

نقطة انطلاقها، ولها تسميات عديدة منها التجريبانية المنطقية والوضعية المحدثّة. أسسها مجموعة من الفلاسفة والرياضيين والفيزيائيين من معجبي هيوم

وماخ (Mach) 1838-1912

- (1)- Philippe Saltel. LeVocabulaire De Hume.Paris ;Ellipsses ;Edition Marketing S.A ; 2009.Matière P .p85.
- (2)- David Hume. Traité De La Nature Humaine. Traduction inedite par Philppe Baranger et Philippe Saltel.Présentation ; notes ; index ;bibliographie et chronologie par Philippe Saltel.Paris ;G F ;1995.Tome 1 ;1ière Partie ;section1.p41.
- (3)- Ibid.
- (4)- ibid.
- (5)- ibid.p42.
- (6)- ibid.p43.
- (7)- ibid.p45.
- (8)- ibid.p47.
- (9)- Abdessalam Ben Maissa. La Causalité Et La Probabilité Chez D.Hume Et Dans Le Neopositivisme(Thèse de Doctorat) Paris ;Université De Paris Sorbonne ;1982.p167.
- (***) ترجع نظرية الأفكار الفطرية الى الفلسفة الأفلاطونية ، حيث رأى أفلاطون (427-379....) أن المعرفة تذكر لما جبلت عليه النفس في عالم المثل. ولقد تبني أعلام الفكر الوسيط هذه النظرية وتبناها في العصر الحديث الفيلسوف الفرنسي ديكارت.
- (10)- David Hume. Enquête Sur L Entendement Humain. Traduction ;Préface et notes d André Le Roy.Paris,Edition Montaigne.1947, section3.p58.
- (11)- Ibid.p55.
- (12)- David Hume. Traité De La Nature Humaine.Tome 1,1iere partie, section 2. P47.
- (13)- Ibid.pp48-49.
- (14)- H.Reichenbach.La Philosophie Scientifique.Vues nouvelles sur ses buts et ses méthodes.Paris,Hermann, 1932.p140.
- Dans Abdessalam Ben Maissa. La Causalité Et La Probabilité Chez D.Hume Et Dans Le Neopositivisme.p190.
- (15)- A.J.Ayer.Ed. logical positivism. P10. . Dans Abdessalam Ben Maissa. La Causalité Et La Probabilité Chez D.Hume Et Dans Le Neopositivisme. P167.
- (16)- Abdessalam Ben Maissa. La Causalité Et La Probabilité Chez D.Hume Et Dans Le Neopositivisme. P186.
- (17)- Ibid.p 191.
- (18)- David Hume. Enquête Sur L Entendement Humain.Section 3 .p57.
- (19)- David Hume. Traité De La Nature Humaine.Tome 1,1iere partie, section VII.p64.
- (20)- Ibid.p65.
- (21)- Ibid.p67.
- (22)- Philippe Saltel.Qu est-que Croire.(Article). Dans. Jean Pierre Cléro et Philippe Saltel. Lecteurs De Hume. Paris, Ellipsses ;Edition Marketing S.A ; 2009.p29.
- (23)- Gabriël Compayré. La Philosophie De David Hume. Paris, Librairie Du Collège D France,1873. P64.
- (24)- David Hume. Traité De La Nature Humaine.Tome 1,4ème partie, section VI. P345.
- (25)- زكي نجيب محمود. دافيد هيوم.مصر، دار المعارف، دون سنة. ص123.
- (26)-El Hanan Yakira. La Causalité De Galiléé A Kant.Paris,presse Universitaire De France. 1994.p41.
- (27)- David Hume. Enquête Sur L Entendement Humain.Section VII .p110.
- (28)- Ibid.p122.
- (29)- David Hume. Traité De La Nature Humaine.Tome 1,3émé,SectionxIv.p247.